خطبة صلاة الجمعة 13/ 2/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(خلق الحياء)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

قال تعالى في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

قَالَتْ السيدة عائشة رضي الله عنها: (مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: لَبَّيْكَ).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّوم وَالصَّلاةِ**» [الترمذي].

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة الرابعة من سلسلة خطب عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)

الخُلق: هو السجية والطبع. وعرَّفه الإمام الغزالي بأنه: (هيئةٌ في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكر ورويّة).

يطبع اللهُ تعالى أناساً على بعض الأخلاق النبيلة، بينما يحتاج آخرون إلى التدرب عليها والتطبع بها حتى تصبح طبعاً لهم وخلقاً.

بينما يطبع آخرين على خلال حميدة أخرى، فيحتاج الأولون إلى التدرب عليها لتصير لهم طبعاً وخلقاً، فيتساوى العباد في التشريف والتكليف.

فبإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانِكَ التطبع بالخصال الكريمة لتلتزمها. وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لايليق بمثلك، وهذا هدف السلسلة.

سبق حديث عنوانه: لماذا هذه السلسلة؟ وحديث عنوانه: كيف يعرف المرء عيوب نفسه؟

وحديث عنوانه: كيف يكتسب المرء الخلق الحميد ويتخلى عن الذميم؟.

ونبدأ اليوم بعد تلك المقدمات الضرورية بسطاً للأخلاق، وعنوان خطبة اليوم: (**خلق الحياء**)

بدأت بالحياء خلقاً أول في هذه السلسلة، لأني سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ لكل دِيْنٍ خُلُقاً وخُلقُ الإسلامِ الحياء**» [مالك في الموطأ]. فعلمت أنَّ الحياءَ أبرزُ معالم المسلم.

بدأت بالحياء خلقاً أول في هذه السلسلة، لأني قرأت لحجة الإسلام الغزالي في إحيائه في (بَيَانُ الطَّرِيقِ فِي تأديب الأبناء وتحسين أخلاقهم) قوله:

(اعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيقَ فِي رِيَاضَةِ الصِّبْيَانِ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ... وَأَوَّلُ ذَلِكَ ظُهُورُ أَوَائِلِ الْحَيَاءِ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَحْتَشِمُ وَيَسْتَحِي وَيَتْرُكُ بَعْضَ الْأَفْعَالِ فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِإِشْرَاقِ نُورِ الْعَقْلِ عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشِّر بكمال العقل عند البلوغ. فَالصَّبِيُّ الْمُسْتَحِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُهْمَلَ بَلْ يستعان على تأديبه بحيائه).

بدأت بالحياء خلقاً أول في هذه السلسلة، لأني قرأت أقوال العارفين بالله بأنَّ الْحَيَاءَ: مِنْ أَوَّلِ مَدَارِجِ أَهْلِ الْخُصُوصِ، يَتَوَلَّدُ مِنْ تَعْظِيمٍ مَنُوطٍ بِوُدٍّ.

وإِنَّمَا جُعِلَ الْحَيَاءُ مِنْ أَوَّلِ مَدَارِجِ أَهْلِ الْخُصُوصِ: لِمَا فِيهِ مِنْ مُلَاحَظَةِ حُضُورِ مَنْ يَسْتَحْيِي مِنْهُ.

وَأَوَّلُ سُلُوكِ أَهْلِ الْخُصُوصِ: أَنْ يَرَوُا الْحَقَّ سُبْحَانَهُ حَاضِرًا مَعَهُمْ، وَعَلَيْهِ بِنَاءُ سُلُوكِهِمْ.

بدأت بالحياء خلقاً أول في هذه السلسلة، لأنَّ من لم يستح فاغسل يديك منه، إذ تُسلمه قلة حيائه إلى ارتكاب الموبقات، والاعتداء على الحرمات.

فهو يتدرج من سيء إلى أسوأ ولا يزال يهوي حتى ينحدر إلى الدَّرك الأسفل، فالْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ. وفي سنن ابن ماجه عَنِ ابْنِ عُمَر رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ عَبْدًا، نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا، نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا، نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيمًا مُلَعَّنًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيمًا مُلَعَّنًا، نُزِعَتْ مِنْهُ رِبْقَةُ الْإِسْلَامِ**».

أيها الإخوة:

الحياء بالتعريف: خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبَائِحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي حَقِّ صَاحِبِ الْحَقِّ.

والحياء بالتعريف أيضاً: انطواء في النفس يمنعها من ارتكاب ما لايليق.

يقول محمد الغزالي المعاصر:(عندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغي أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق، فاعلم أنه حَيُّ الضمير، نقيُّ المعدن، زكيُّ العنصر. وإذا رأيت الشخص صفيقاً بليدَ الشعور، لا يبالي ما يأخذ وما يترك، فهو امرؤٌ لا خير فيه، وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا).

ويظهر حياء المرء في أقواله وأفعاله وقلبه:

- فالحياء في **القول**: يتطلب من المسلم أن يُطهِّر فمه من الفحش، وأن يُنَزِّه كلامه عن العيب، فيترفع عن ذكر العورات، ويتعالى عن بذيء الكلام.

ومن هنا يعلم من علق بلسانه الكلام البذيء أو الشتائم اللاذعة أو الطرف الحاوية على وصف العورات... يعلم صاحبها أنه مقصر في خلق الحياء وعليه أن يتدارك.

- ومن الحياء في **القول**: أن يُقدِّم المسلمُ الكبيرَ في الكلام ليتكلم أولاً، ثم الامثل فالأمثل، ثم إن تكلم هو اختار مايليق بمثله واختصر ليترك لغيره مقالاً.

روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَلاَ تَحُتُّ وَرَقَهَا**». فقال القومُ: كذا، هي شجرةُ كذا، فأَرَدتُ أَن أَقولَ: هي النَّخْلةُ، وأَنا غلام شاب، فَاستَحْيَيْتُ، وفي رواية: فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَسَكَتُّ، فقال صلى الله عليه وسلم: «**هي النَّخْلَةُ**».

- ومن الحياء في **الفعل**: ألا يرتكب المرء عملاً يورثه السُّمعة السيئة أو يُسوِّد صحيفته أمام الناس وأمام الله، وكم من رجل أساء لسيرته الذاتية بأفعاله الدنية ولو حمل الحياء خلقاً لانطوت نفسه عن فعل الدنايا.

أُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ جَهْدِي ... وَأَكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ وَأَنْ أُعَابَا

وَأَصْفَحُ عَنْ سِبَابِ النَّاسِ حِلْمًا ... وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السِّبَابَا

وَمَنْ هَابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوهُ ... وَمَنْ حَقَرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يُهَابَا

استشار رجل رجلاً في خاطب فذكر سمعة سيئة في سوقه التجاري نتيجة ذِمَمه المالية غير النقية وتعاملاته غير المهذبة مع جواره، ما صد السائل الخاطب.

- ومن الحياء في **الأفعال**: أن يعرف المرء للناس أقدارهم، فالشاب يحترم المسن، والمتعلم يوقر المعلم، والابن يخدم والديه ويبرهما، والزوجة تتأدب مع زوجها، والعامل يُجِلُّ صاحب العمل... يحملهم الحياء جميعاً على أن يُنزلوا الناس منازلهم.

روى البزار في مسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قَالَ: جِئْتُ بِأَبِي أَبِي قُحَافَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ فَقَالَ: هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ حَتَّى آتِيَهُ، قُلْتُ: بَلْ هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَأْتِيَكَ، قَالَ: «**إِنَّا نَحْفَظُهُ لِأَيَادِي ابْنِهِ عِنْدَنَا**».

فحفظ النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر عمله ولأبيه سِنَّه، وحفظ أبو بكر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم مقامَه. إنَّ الحياءَ خيرٌ كله.

- ومن الحياء في **الأفعال**: ألا ينظر المرء في عورات الناس، وألا يُظهر ما يجب ستره.

روى الترمذي بإسناده عن بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عن أبيه عَنْ جَدِّه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: «**احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلاَّ مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**»، فَقَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «**إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ**»، قُلْتُ: وَالرَّجُلُ يَكُونُ خَالِيًا، قَالَ: «**فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ**».

- ومن الحياء في **القلب**: أن تعلم بأنَّ الله تعالى مُطَّلع على ما في قلبك فلايرى فيه إلا الخير، وأن تراقب نفسك في نظره جل جلاله فتجله أن يراك على مالا يحب، ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: 14]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19].

قَالَ الإمام الْجُنَيْدُ: (الْحَيَاءُ رُؤْيَةُ الْآلَاءِ، وَرُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الْحَيَاءُ).

وَقَالَ ذُو النُّونِ: (الْحَيَاءُ وُجُودُ الْهَيْبَةِ فِي الْقَلْبِ مَعَ وَحْشَةِ مَا سَبَقَ مِنْكَ إِلَى رَبِّكَ، وَالْحُبُّ يُنْطِقُ، وَالْحَيَاءُ يُسْكِتُ، وَالْخَوْفُ يُقْلِقُ).

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الإمام الترمذي، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**».

أيها الإخوة:

كيف لأحدنا إن رأى في نفسه جرأة على الحياء، أن يحافظ على حيائه ويزيده؟

1) كثرة ذكر الله تعالى: فبالذكر يحيا القلب، فإذا حيي كَثُر حياؤه، وقد قال الصالحون: الْحَيَاءُ مِنَ الْحَيَاةِ. وَمِنْهُ الْحَيَا لِلْمَطَرِ، وَعَلَى حَسَبِ حَيَاةِ الْقَلْبِ يَكُونُ فِيهِ قُوَّةُ خُلُقِ الْحَيَاءِ. وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ. فَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أَحْيَى كَانَ الْحَيَاءُ أَتَمَّ.
2) مجالسة من يستحيا منهم، ومجالسة من يستحيون، قال بَعْضِ الْحُكَمَاءِ: أَحْيُوا الْحَيَاءَ بِمُجَالَسَةِ مَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ.

وإنَّ في مصاحبة أهل الحياء تعلم للحياء، وفي مجالسة من هتك ستر الحياء هتك للحياء.

3) لزوم مجالس العلم، فيتعلم فيها المرء ماينبغي أن يعمل ليعمل، وماينبغي أن يذر فيذر.

(**الذكر والصحبة والعلم**) ثلاثة تورث الحياء.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مَرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على رَجلٍ وهو يعْاتِبُ أخاهُ في الحَيَاءِ يقولُ: إنَّك لَتَسْتَحيي، حَتَّى كَأنَّهُ يَقُولُ: قد أَضرَّ بِكَ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**دَعْهُ، فإنَّ الحياء مِنَ الإيمَانِ**» [أخرجه الجماعة].

والحمد لله رب العالمين